الأبحاث

بقلم محمود امين العالم

كان العدد الماضي من الآداب عددا ممتازا حقا ، لا لدسامة موضوعاته ووفرتها فحسب ، وانما لانه كان كذلك سجلا لحدثين جليلين من احداث امتنا العربية هما الثورة في لبنان والعراق .

ولقد استهلت الاداب هذا العدد استهلالا طيبا ابرزت فيه معالم الالتقاء النضالي العظيم بين هذين الحدثين العظيمين، فاسهمت بهذا في تأكيد معاني الوحدة في حركة النضال العربي. كما ابرزت كذلك دور الادباء والكتاب في هذه الثورة واشادت بما « اداه القلم الحر من خدمات في اشاعة روح الثورة » وتمنيت لو اضافت الاداب الى هذه الفقرة « وفي المشاركة الفعالة في النضال » فما اكثر ادباءنا وكتابنا الذين حملوا السلاح ووقفوا خلف المتاريس وترجموا ثقافاتهم الى عمل وبذل ونضال .

اما مقالات العدد وابحاثه فكان الجانب الاكبر منها تعبيرا حارا عن فرحة الانتصار وتلخيصا لخبرات المعارك ، وسعيا لتدعيم الانتصار وحمايته وتطويره وارسائه على اساس راسخ قويم ، وشحذ اليقظة ازاء ما يتربص بهذا الانتصار من مؤامرات ، وما يقف دونه من عقبات .

وتنقسم هذه المقالات والابحاث قسمين : اولهما يتعلق مباشرة بالثورة اللبنانية والعراقية ، اما الثاني فيغلب عليه الطابع النظري العام .

القسم الاول : احب ان اشيد اولا بمقالات الاساتذة عبدالله العلايلي وفؤاد الشايب وعلى سعد ، فلقد كانت في الحقيقة قصائد نابضة حقا، غنية بالصور الحية ، والتأملات الواعية العميقة ، والتفاؤل الخصب .

وكانت كذلك يوميات الدكتور سهيل ادريس متابعة امينة واعية لخطوات المعركة في لبنان ، تشارك يوما بعد يوم في احداثها ومشكلاتها وانتصاراتها فترفد المعركة بالافكار والتوجيهات الثورية ، وترد على دعاوي اعدائها ، وتخطط لمساراتها ، وتحدد واجباتها ، وتواصل طريقها في حزم ويقظة وصلابة .

ومع تقديري العميق ليوميات الدكتور سهيل وللدور الذي اداه في المعركة ، فانني اختلف معه في اشارة عابرة وردت في احدى يومياته ، يذكر فيها ان الماركسية تناهض القومية .

والدكتور سهيل يستند في هذا الى قول خروتشوف « ونحن نعلم ان العرب ليسوا من اتباع الماركسية ،بل انهم اليوم يؤمنون بالقومية التي تجمعهم وهم احرار في هذا » . وما يفهم من كلمة خروتشوف الا ان التعاون والصداقة العربية السوفييتية لا تقوم على وحدة ايديولوجية ، بل على وحدة النضال المشترك ضد الاستعمار . فللعرب نظامهم الاجتماعي والاقتصادي ولهم فلسفتهم الوطنية ، ولنا نظامنا وفلسفتنا .

وهذا لا يعني من قريب او من بعيد ان الماركسية مناهضة للقومية . فما وجدت المشكلات القومية حلا افضل واسلم من الحل الذي تقدمه الماركسية لها ، ويطبقه الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية وبقية الدول الاشتراكية في بلادها . والماركسية لا تدعو الى طمس القوميات بل تدافع عن حقها في تقرير مصيرها ، وتدعو الى تنمية قسماتها الخاصة . والماركسيون العرب يؤمنون بالقومية العربية على اساس تحرري ديمقراطي وهم يكافحون في كل بلد عربي من اجل تحرير البلاد العربية وتوحيدها. والماركسيون في العراق مثلا يناضلون من اجل التحرر والوحدة العربية، ولكنهم في الوقت نفسه يحترمون القومية الكردية ، ولا يسعون الى طمسها ، بل يدافعون عن حقها في تنمية قسماتها الخاصة ، وتقرير مصيرها . حقا ان الماركسية ترى ان القوميات ظاهرة مؤقتة في تاريخ البشرية ، ستزول تدريجيا بزوال النظام الرأسمالي العالمي وبتلاشي الطبقات واجهزة الدولة . على ان هذه مرحلة تاريخية بعيدة . اما في بلادنا العربية اليوم فقوميتنا العربية ظاهرة موضوعية تقدمية ، لانها في جوهرها تقوم على التحرر من الاستعمار ، ورفع مستوى معيشة الشعب وتنمية طاقاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وحماية السلام .

اما مقالة الاستاذ رئيف خوري عن « لبنان والتغيير الجذري » فلعلها من انضج مقالات هذا العدد واكثرها وعيا وموضوعية . فالاستاذ رئيف يرى ان الواقع الثوري في لبنان لا يستقيم مع وجود دستور متخلف من عهد الانتداب . وان الحاجة اصبحت ملحة لتغيير هذا الدستور تغييرا وطنيا ديمقراطيا حتى ينسجم مع الاوضاع الثورية الجديدة ، ويضمن تطورها وتقدمها . ولهذا يدعو الى انتخاب جمعية تأسيسية لوضع هذا الدستور الجديد واعلانه على اللبنانيين لمناقشته واقراره في جو من السيادة الكاملة والحرية التامة . ثم ياخذ الاستاذ رئيف بعد ذلك في تحديد الهوية اللبنانية ، فيؤكد غلبة الطابع القومي العربي على لبنان ، وان لبنان لا يمكن ان يكون محايدا للقومية العربية . ثم يناقش الوحدة العربية في صراحة فيقرر ان الاساس الاول لها هو وحدة الكفاح للتحرر من الاستعمار ومن الانظمة الرجعية الخادمة للاستعمار واسرائيل . ولهذا يتخذ موقفا وسطا بين الدعوة الى العزلة اللبنانية والدعوة الى الدمج وتصفية الدولة اللبنانية في دولة عربية واحدة . فيدعو الى لبنان المستقل المتحرر ذي النظام الديمقراطي المتطور ، المتمسك بسياسة السلام. فبهذا يلتقي لبنان لقاء نضاليا مع القومية العربية ، ويكون نموذجا لدولة عربية مستقلة ديمقراطية في الشرق .

واذا كنت اومن مع الاستاذ رئيف باهمية التغيير الدستوري في هذه المرحلة لتتويج الثورة اللبنانية ، وتجسيد اهدافها وقيمها الوطنية والشعبية ، وارساء دعامتها الديمقراطية التي تتيح لها التطور والازدهار ، فانني اؤمن كذلك ان التغيير الجذري في لبنان انما يتحقق بتغيير الوضع الاجتماعي والاقتصادي القائم الذي هو خميرة تتولد منها الاتجاهات

الطائفية والرجعية ، وتكمن فيها الاخطار الحقيقية على الثورة . فالاقتصاد اللبناني يقوم على الترانزيت والاستعمار يستغل هذا الوضع لصالحه ، ليبقي به سيطرته على الوضع الداخلي في لبنان . ولا مخرج من هذا الا بتنمية الروابط الاقتصادية بين لبنان والبلاد العربية المتحررة وعلى وجه التحديد الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية العراق على اساس مخطط مدروس ، يهدف اساسا الى تنمية الاقتصاد اللبناني القومي ، وتوثيق صلته باقتصاديات الدول العربية المتحررة ، فضلا عن تنمية الروابط الاقتصادية مع كافة الدول الوطنية والاشتراكية في العالم وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي .

ولا شك ان تدعيم وحدة كل القوى الوطنية والتقدمية في لبنان ، وتنمية ساطنها هو الضمانة الاكيدة لتغيير الدستور تغييرا ديموقراطيا ر يحا ، وتحقيق هذا الانعطاف الاقتصادي ، الذي هو اولى الواجبات بعد اتمام جلاء قوات الاحتلال .

وانا اتفق مع الاستاذ رئيف في ان جوهر الوحدة العربية هو النضال ضد الاستعمار والصهيونية وحماية السلام ، الا انني اختلف معه من الناحية المبدئية - لا العملية - في مسألة الدولة . فالقول بالوحدة يستلزم القول بشكل من اشكال الحكم الموحد .. ليكن اتحاديا او تعاهديا او توحيديا .. ولكن ينبغي ان يكون هناك شكل للحكم . ويختلف هذا الشكل باختلاف الملابساتالموضوعية في كل بلد . ولبنان جزء من الامة العربية بغير شك . ولكن للبنان ملابساته الاقليمية الموضوعية الخاصة ، التي تحدد بارادة ابنائه شكل الوحدة ، هذا الشكل الذي يتفق مع مصالحه وملابساته الخاصة . الا ان هذه الملابسات الخاصة قد لا تتلاءم اليوم مع طرح هذه القضية ... قضية الوحدة . ولهذا فالمهمة العاجلة اليوم هي ان يتخذ لبنان لنفسه خطا تحرريا ديمقراطيا منسجما مع الاتجاه القومي العربي التحرري. اما قضية الوحدة وشكلها فهي قضية تنمو في لبنان مع نمو الاوضاع التحررية والديموقراطية ، ويرتفع شعارها عندما تنضج هذه الاوضاع . اما اليوم فاخشى ان يفضي رفع شعار الوحدة الى اثارة الخلافات بين قوى الجبهة الوطنية ، بدلا من تدعيمها تقويتها .

واذا كان الاستاذ رئيف خوري قد حدد التغيير الجذري بتغيير الدستور تغييرا ديمقراطيا ، فان الاستاذ جوزف مغيزل يدعونا في مقالته « الواقع العميق » الى تفهم مشكلات الواقع اللبناني في مستوى اكثر عمقا واشد جرأة على حد تعبيره . انه « يريد أن نسبر غور تلك الظاهرات السياسية لندرك جذورها والمعضلات التي تكمن وراءها وتفجرها ، ونسعى على ضوء ذلك الى الخروج من الشدة بخطوات حاسمة جادة نحو بناء الغد الذي نريد »

والبحث في الحقيقة طرح تمهيدي لقضايا الواقع اللبناني وتعميق لمشكلاته الباطنه ، ودعوة حارة الى مزيد من المناقشات ، للوصول الى تخطيط علمي يحدد مسلكنا ازاء هذه المشكلات . الا ان الاستاذ جوزف مغيزل يحدد موقفه من بعض هذه القضايا تحديدا اختلف فيه معه . واول هذه القضايا تصويره للصراع الدولي الدائر اليوم . فهو صراع بين الشيوعية الدولية التي تتمثل في الاتحاد السوفياتي وبين الرأسمالية الدولية التي تتمثل في الولايات المتحدة الامريكية .. والاستاذ مغيزل يجعل هاتين القوتين المتصارعتين على مستوى واحد . فهما سواء بسواء اما معنا واما ضدنا .. وهما سواء بسواء يتستران بالدفاع عن القيم العليا والحقوق المهضومة . فالغرب يتمنطق بدرع انقاذ الحرية والمحافظة على الروحانية والشرق يتمنطق بدرع حماية الطبقات الكادحة ومناصرة الشعوب المستعمرة . وكلاهما احتكرا هذا الدفاع . والشعوب الصغيرة لا حيلة لها الا ان تنجر وراء احدهما وتتقيد بما يرسم من خطط ومشاريع او ان تتعذب وتتحمل الضغط والمتاعب .

وما اعتقد ان الاستاذ مغيزل الذي يدعو الى تناول الامور بعمق وتفهم وجرأة ، يرتضي لنفسه هذا التحليل الذي يتناقض مع ابسط خبرات واقعنا النضالي .

ان اخطر ما يهدد حركتنا الوطنية والقومية ان نضع المعسكر الاشتراكي والمعسكر الاستعماري على مستوى واحد ، وان نصور الصراع بينهما صراعا على الدول الصغيرة . فما اعمق الاختلاف بينهما . وما اخطر الدور الذي يقوم به المعسكر الاشتراكي لحماية الدول الصغيرة وتدعيم استقلالها وتطويره . ان المعسكر الاشتراكي بحكم نظامه الاقتصادي معسكر للسلام والتقدم ، والمعسكر الاستعماري بحكم نظامه الاقتصادي كذلك معسكر للاستغلال والحرب . فاين تقف حركتنا التقدمية من هذين المعسكرين ؟

ان واقع خبرتنا الماضية كما ذكرت تؤكد لنا ان المعسكر الاشتراكيوعلى راسه الاتحاد السوفياتي هو الدعامة الكبرى لحماية استقلالنا ومساندة نضالنا ضد الاستعمار ، وتنمية حياتنا الجديدة ، وان المعسكر الاستعماري وعلى رأسه الولايات المتحدة الامريكية هو عدونا الاكبر . وان حيادنا الايجابي ، ليس موقفا سلبيا وسطا بين المعسكرين، بل هو موقف ايجابي هو تعاون وتحالف مع كل القوى الوطنية والاشتراكية في العالم ، وهو حرب لا هوادة فيها ضد الدول الاستعمارية . لنختلف في تقدير النظام الاقتصادي والاجتماعي في الدول الاشتراكية كما نشاء ، ولكن لا يمكن لوطني ان يختلف في ان الدول الاشتراكية هي الضمانة الاكيدة لنضالنا من اجل التحرر والوحدة والرخاء والسلام .

لا تبعية للمعسكر الاشتراكي ، وليس ثمة من يطلب منا هذه التبعية او يشرطها ، بل تحالف وتعاون يقوم على احترام السيادة القومية ، ولا هوادة مع الاستعمار ، ولا حياد معه ، بل حرب ضروس لتصفيته .

ان الصراع الدائر بين الدول الشيوعية والدول الاستعمارية ليس صراعا من اجل ان يلتهمنا واحد من الطرفين.

ولكنه صراع تبذل فيه الدول الاشتراكية اقصى جهودها من اجل اقرار السلام ، وضمان التحرر للشعوب وتصفية الاستعمار العالمي وتنمية الحضارة البشرية ، وتبذل فيه الدول الاستعمارية اقصى جهودها من اجلتوسيع رقعة استغلالها لشعوبالعالم،وسيطرتها علىمصائرها،واشعال حرب عالمية ضروس . وكافة الشعوب المتطلعة الى التحرر والتقدم مدعوة الى ان تحدد لها موقفا حاسما ، تخدم به مصالحها المباشرة ، وتساهم به في خدمة قضايا السلم والتحرر والتقدم للعالم اجمع ..

وهذا هو موقفنا من الصراع القائم ، انه ليس موقفا وسطاً متهاونا بل تحالف وتعاون مثمر مع كل القوى الوطنية والاشتراكية في العالم ضد قوى الاستعمار والتخلف والحرب .

واراني اني اختلف مع الاستاذ جوزيف مغيزل في مسألة اخرى هي مسألة الديمقراطية . فلست اتفق معه في ان الاساس الحزبي الثنائي المتحقق في بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية هو اكثر الاشكال الديمقراطية نجاحا . فهو في الحقيقة ليس الا لعبة لخداع الجماهير وتمييع صراعهم الاجتماعي ، واذا كان الاستاذ مغيزل يشكو من ان بعض الاحزاب

في لبنان يسيطر عليه « المتمولون والاقطاعيون » ، فليثق من ان هذه الاحزاب التي يتكلم عنها في بريطانيا وامريكا ليست الا ادوات في ايدي كبار الاحتكاريين وسماسرة بيوت المال ، ولا تعبر تعبيرا صادقا عن ارادة الشعب ومصالحه .

وعلى الرغم من اهمية الانتقادات التي يوجهها الاستاذ مغيزل الى الاحزاب في لبنان ، الا انه يبدو لي متشائما في تقدير الدور الذي قامت به بعض هذه الاحزاب وخاصة (الحزب الشيوعي وحزب البعث) في توجيه الثورة اللبنانية وفي حشد الجماهير وتنظيمها وتعبئتها والانتقال بها من نصر الى نصر . حقا ان لبنان ما يزال يفتقر الى بروز القيادة الواعية الصُلبة ، وما يزال يعاني من ميوعة وتردد بعض القيادات القائمة ، الا ان الثورة بغير شك قد انضجت قيادات جديدة اختبرت الجماهير جديتها وصلابتها ، في المعارك ، وان بروز هذه القيادات رهن بتدعيم الجبهة الوطنية وتنميتها بين كافة القوى الوطنية والتقدمية في لبنان .

على ان بحث الاستاذ مغيزل دعوة طيبة لتعمق الاوضاع في لبنان ، وتحديد معالم خطة ثورية لها ، وما اجدر ان يستجيب لهذه الدعوة كافة المفكرين الشرفاء في لبنان ، وان يسهموا جميعا في دراسة الوضع في لبنان واستخلاص الدروس النافعة من ثورته ، وتعميم خبراته ، وبناء خطة ثورية جديدة تلتقي حولها كل القوى الوطنية والتقدمية ، وتواصل بها الجبهة مرحلة جديدة من كفاحها المظفر .

القسم الثاني : اولى مقالات هذا القسم النظري هي مقالة « جيل القلق والمأساة » للاستاذ محي الدين صبحي . ولست اوافق الاستاذ محي الدين على المنهج الذي اختطه لمقالته . فهو يعرض لتاريخ الثورة القومية العربية على اساس الاجيال الثقافية . كالجيل الذي قام بثورة الشريف حسين، ثم الجيل الذي ولد بين ١٩١٥ ـ ١٩٢٥ ثم الجيل الذي ولد بين ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ . ويضع على عاتق كل جيل من هذه الاجيال مسئولية معينة وموقفا خاصا . والواقع انه تعميم وتجريد لا يتيح لنا ان نبصر بحقيقة الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية . فلا شك انه في داخل الجيل تختلف مواقف الافراد بحسب انتساباتهم الاجتماعية ومستوى وعيهم . وفي كل جيل نجد القوى المتقدمة المرتبطة بالشعب، والقوى المتخلفة المرتبطة بالرجعية والاستعمار . ولهذا لا يرصد تاريخ الثورة القومية العربية بتاريخ الاجيال ، وانما بتحليل الاوضاع والمواقف داخل كل مرحلة من مراحل الثورة في اطار الملابسات العالمية . فلو تأملنا مع الاستاذ محي الدين الجيل الاخير الذي يتخذه موضوعا اساسيا لمقالته وهو جيل ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ لما اتفقنا معه على انه جيل التمزق والمأساة ، الجيل الذي يسأل دائما : من انا ؟ لماذا اعيش ؟ ما معنى حياتي ؟ وانه الجيل الذي لم يعتمد استاذا غيرسارتر . الخ..الخ.. انه في الحقيقة انما يتحدث عن فئة محدودة من مثقفي هذا الجيل لها اوضاعها الاجتماعية الخاصة ولها ثقافتها ووعيها الفكري الخاص كذلك ، ولا يستطيع ان يعمم هذا على ابناء هذا الجيل كله ، كما لا يستطيع ان يحرم افرادا من الجيل السابق حملت لواء الوجودية ، وما تزال ، تحملت وعانت وما تزال تعاني هذه التجارب المريرة من الضياع والقلق .

وفي ختام المقالة يدعو الاستاذ محي الدين هذا الجيل الى حمل القلم الى جانب السلاح خروجا به من ازمته ومأساته ، وليكون له دور ايجابي في تدعيم نهضتنا السياسية ـ العسكرية بنهضة فكرية اجتماعية .

الا انه يقف مترددا ازاء هذه المهمة لسببين : اولهما : لحاجته للتوفيق بين الاشتراكية والحرية الفردية والثاني : لرغبته في بناء اشتراكية محلية تلائم روحنا القومية وتحترم ماضينا ولا تفرض علينا حلولا مستوردة، لا تنسجم مع روح شعبنا وماضيه.العريق . .

والاستاذ محيي الدين مخلص بغير شك في حرصه على توضيح الاسس الذهبية التي يقوم عليها ايمانه بالمستقبل ، ومشاركته في صياغته . وما ارى في تردده المذهبي الا اثرا لتلك الدعاوي الباطلة التي تقيم التناقض حيث لا تناقض بين الاشتراكية والحرية الفردية ، من ناحية وبينهما وبين الواقع المحلي والتراث القومي من ناحية اخرى ، لتحول بين المثقف وبين تبنيه للاراء الاشتراكية على اساس علمي سليم .

فالواقع ان المعنى الجوهري للاشتراكية العلمية هو التحرر ، التحرر من الضرورة الاجتماعية والطبيعية بادراكها والسيطرة عليها وتوجيهها لصالح الانسان والتقدم . والاشتراكية هي الفجر الصادق للتحرر الفردي والاجتماعي معا . بل لا قيام لحرية حقيقية كاملة في اطار نظام من الاستغلال والصراع الطبقي والاستعمار ، ولا تمتع ولا ازدهار للحرية الفردية بحق الا بازالة هذا النظام ، والقضاء على كل ما يعوق التطور الانساني ، وتفجير طاقاته الخلاقة ، في اطار النظام الاشتراكي.

والاشتراكية من ناحية اخرى لا يمكن ان تستورد من الخارج ... فالثورات لا تستورد ولا تصدر ، وانما هي ثمرة لتغيير قوى الانتاج وعلاقاته في المجتمع المعين . ولكي تقوم الاشتراكية وتزدهر ينبغي ان تقوم مستلهمة كافة خصائص هذا المجتمع المعين ، معبرة ومطورة لافضل ما فيه من تراث وخبرات وسمات خاصة . حقا اننا نستعين في بناء الاشتراكية بالخبرات العالمية وبالتعميمات الثورية الناجحة ، كما نستعين بالخبرات الانسانية في العلوم النظرية كالفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها . ولكننا حتى في هذه الحالة نستلهم احتياجاتنا المحلية ، وملابساتنا الخاصة، ونحقق الاشتراكية تحقيقا شعبيا خلاقا نابعا من هذه الاحتياجات والملابسات .

اما المقالة الثانية في هذا القسم فهي بحث مطول للدكتور سعدون حمادي بعنوان « الانسان والتقدم » وهو محاولة لتفسير التطور الاجتماعي بصفة عامة ، والوصول عن طريق ذلك لتفسير التطور في المجتمع العربي. وهو بحث ميتافيزيقي في الحقيقة رغم استفاد مقدماته على ما يشبه المناهج والمصطلحات العلمية . ينتهي به الدكتور سعدون الى اقامة مذهب متماسك تماسكا شكليا ـ كأي مذهب ميتافيزيقي ـ ولكن سرعان ما تتبين تناقضاته الداخلية العميقة عندما نختبر قضاياه ومفاهيمه على ارض الواقع .

والدكتور سعدون يبدأ بحثه بسؤال مركزي هو كيف نفسر التطور الاجتماعي ، ويجيب على هذا السؤال في فقرتين : في الاولى يميز بين قوى ثلاثة في التطور هي الفرد والمجتمع والطبيعة . والفرد عنده هو (الانسان بوضعه المجرد عن كل دخيل عليه من الخارج سواء اكان ذلك المجتمع ام الطبيعة » اما المجتمع فهو « مجموعة من النظم والقوانين والتقاليد والعادات والمؤسسات وكل ما تفرض العلاقات بين الناس وضرورات العيش بمجتمع». ثم هناك الطبيعة « بكل ما فيها من قوى ومادة اولية وتفاعلات » بين هذه القوى الثلاث تأثير وتقابل في التأثير . ومن ذلك كما يقول ينتج التطور. ولكن الدكتور سعدون سرعان ما يوحد بين القوى الاجتماعية والطبيعية في مجموع واحد يسميه « بالظروف » ويضع المسألة على النحو التالي « هناك انسان، وهناك ظروف ، كل منهما قوة متفاعلة متأثرة بالاخرى . والتطور نتيجة هاتين القوتين ونوعية العلاقة القائمة بينهما » . ثم يسأل الدكتور

سعدون عن القوة المركزية في هذا التطور ويجيب بانها «الانسان» فالانسان « قوة موجهة للظروف المحيطة » ويحلل الدكتور سعدون هذه القوة الى قسمين : الاول يسميه بالنشاط الانساني الخاص ، والثاني هو النشاط الانساني التوجيهي العام . اما النشاط الخاص فهو ما يقوم به الانسان عادة لمواجهة الظروف الجارية من يوم لاخر . انه الفاعليات التي يقوم بها اتجاه العوامل المحيطة به ، المتعلقة بالجوانب الاعتيادية في حياته » ويضرب لذلك عدة امثلة ككسب العيش واتقاء العوارض الطبيعية والمشاكل والازمات والعقد الاجتماعية والعمل السياسي والاقتصادي . وهذا النشاط في رأيه نشاط يتحقق به تكيف الانسان لظروفه المحيطة . اما المحرك لهذا النشاط فهو « المحافظة على الحياة بمفهومها الضيق المقتصر على المحافظة على النفس والسعي لتحسين الشؤون الخاصة وتجنب كل ما من شأنه تهديدها . » والدكتور سعدون يتجنب بهذا تجنبا ارادويا واعيا كل محاولة لمعرفة الاسباب المباشرة لهذا النشاط ، ويسعى لايجاد تفسير نهائي لها على حد تعبيره، هذا التفسير يحدد «العوامل العميقة النهائية وراء مجموعة التصرف اليومي » اما هذه الدوافع العميقة فهي « المحافظة على الحياة ». اما هذا النشاط الخاص فهو كما ذكرنا ليس الا « تكيفا للاوضاع الاجتماعية القائمة » اي انه نشاط تقرر نوعيته الظروف المحيطة اجتماعية كانت ام طبيعية .وعلى هذا فان سلوك الفرد كما يقول نشاط مفروض من الخارج ، وليس نشاطا اختياريا صادرا من الداخل .

وفي الفقرة الثانية يتناول الدكتور سعدون بالتحليل النشاط التوجيهي العام . وموضوع هذا النشاط هو النظم السياسية والاقتصادية القائمة والبناء الاجتماعي والتقاليد والمؤسسات الفكرية والدينية والمستوى العلمي والفني القائم ، لا الظواهر الجزئية الناتجة من سعي الفرد اليومي للمحافظة على الحياة . وهو على عكس النشاط الخاص تماما ، ليس تكيفا مع الظروف بل هو نزعة للسيطرة عليها . واذا كانت المحافظة على الحياة هي المحرك للنشاط الخاص فان نزعة الخير في الانسان التي هي جزء من ارادة الحق المطلق المجرد في الكون هي القوة الدافعة على هذا النشاط. ولهذا فهو نشاط طوعي ليس مفروضا من الخارج شأن النشاط الخاص ، بل صادر عن ارادة الانسان ، وهو اخلاقي تحركه ارادة الخير المستيقظة فيه . والسببية في هذا النشاط عكس السببية في النشاط الخاص . فالانسان يصبح قوة مسببة . اما الاوضاع الاجتماعية والطبيعية فتصبح قوى متكيفة . والنشاط الخاص يتكيف به الانسان بسلوكه وتفكيره للاطار الاجتماعي الذي يعيش ضمنه ، اما النشاط التوجيهي العام فهو نشاط يغير به الاطار الاجتماعي نفسه بين فترة واخرى من التاريخ » واذا كان الدكتور سعدون قد رد النشاط الخاص الى الانسان الفرد المجرد كما ذكرنا فانه ينسب النشاط التوجيهي نفسه الى « قسم من الناس تنبهت واتسقت بهم ارادة الحق قبل غيرهم » ثم لا يلبث الدكتور سعدون ان يقيم اتحادا جوهريا بين النشاط الخاص والنشاط التوجيهي . فالحقيقة الاصيلة في الحياة كما يقول هي نزعة الحق (المتمثلة بحب المحافظة على الحياة وشروط استمرارها وتحسينها ما امكن). ولكن الانسان قد يسلك لتحقيق ذلك طرقا مختلفة تارة عن طريق تغيير اسس المجتمع الراهنةوتارة بالتكيف لها » وعلى هذا فان القوة الايجابية في التطور البشري هي ارادة الخير في الانسان . والانسان هنا ليس هو الفرد المجرد ونشاطه الخاص، لانه مجرد قوة متكيفة ، وانما هو « قسم من الناس » ، لا تحديد لها غير ما تتسم به ارادة الخير . والدكتور سعدون يفسح احيانا هذا القسم من الناس حتى يشمل الامة او حتى الجنس البشري. على ان القوة الاصيلة فيه هي ارادة الخير . اما الظروف اي الاوضاع الاجتماعية والطبيعية فليست الا قوة سلبية . ان الانسان اخيرا « هو القوة التي تخلق تسيطر على التطور ، جوهره الاصيل نزعة الخير . هذا هو اتجاه السببية في التطور الاجتماعي » كما يراه الدكتور سعدون .

وقبل ان ننتقل الى تطبيق هذا المذهب على المجتمع العربي نتوقف قليلا لمناقشته .

لعل ابرز ما يميز هذا المذهب هو منجهه التجريدي الخالص الذي يسعى الى عزل الظواهر عن نسيجها المتشابك ، واخفاء فروقها الذاتية من ناحية ، وقسماتها المشتركة من ناحية اخرى ، ثم تفسيرها تفسيراً غائيا يجمد حركتها ويفقدنا الادراك الموضوعي بقوانينها الموجهة . فالانسان الفرد في اطار هذا المذهب انسان فرد مجرد ، لا ينتسب الى وضع اجتماعي معين ، يقف به ازاء المجتمع والطبيعة . والطبيعة والمجتمع على السواء تفتقدان خصائصهما الذاتية وتتوحدان ازاء هذا الفرد في صيغة واحدة هي « الظروف » وعلى الرغم من اعتراف الدكتور سعدون بان كل نشاط خاص فهو نشاط اجتماعي ، الا انه لا يعبأ كثيراً بهذه الحقيقة الكبيرة ، ويرى فيها سعيا الى ادراك الاسباب المباشرة . ولهذا يجرد هذا النشاط من دلالته الاجتماعية ليصل الى اساسه النهائي على حد تعبيره وهو المحافظة على الحياة ، ويجعل منهذا النشاط الخاص مجرد تكيف للظروف ، ولا شك ان المجتمع والطبيعة حقيقتان موضوعيتان لكل منهما قوانينه الموضوعية المتميزة الخاصة ، ولا شك كذلك ان الفرد كائن اجتماعي، له ذاتيته الخاصة ولكنه له كذلك وظيفته الاجتماعية ، فهو ليس مطلق فرد والا لعجزنا عن تفسير نشاطه الفردي الخاص ، كما يعجز هذا المذهب . ففي اطار هذا المذهب يصبح نشاط فورد الاحتكاري العالمي هو نفسه نشاط بائع الفول في حواري القاهرة ، ونشاط العامل الصناعي هو نفسه نشاط صاحب المصنع ، ونشاط المالك الاقطاعي هو نفسه نشاط العامل الزراعي ، او سمسار القرية ومرابيها ، وهكذا . فلا شك ان هؤلاء الافراد جميعا يتفقون في اساس واحد هو المحافظة على الحياة وعلى الكسب ورفع مستوى معيشتهم ، ولكن ما هو الاساس المميز بينهم في مذهب الدكتور سعدون ؟ لا شيء على الاطلاق ! ان حرصه على الوصول الى ما يسميه بالاسباب النهائية قد دفعه الى البحث عن علل بيولوجية وسيكولوجية تارة ، او اخلاقية تارة اخرى ، لا تصلح اساسا للتمييز بين انواع النشاط الانساني او لتغير القوانين الداخلية لحركة المجتمع .

والدكتور سعدون من ناحية اخرى يجمد العلاقة بين هذا النشاط الفردي الخاص وبين المجتمع او الظروف . فهو يقرر بان الانسان هو صانع قوانين المجتمع ، دون ان يحدد لنا معنى ان يصنع الانسان قوانين المجتمع ولا ان يفسر لنا نوعية هذه القوانين او نوعية هذا المجتمع . فلا شك ان لكل مجتمع قوانينه الخاصة التي تنبع من بنائه . فقوانين المجتمع الاقطاعي غير قوانين المجتمع الرأسمالي غير قوانين المجتمع الاشتراكي . وليس من الدقة العلمية ان نطلق الحكم بان مجرد الانسان هو صانع القانون . فالقوانين لا تصنع ، وانما توجد وتحقق موضوعيا في المجتمع بحسب البناء الانتاجي لهذا المجتمع . اما القوانين الوضعية التي يسنها الانسان ، فهي في الحقيقة مجرد تنظيم للعلاقات الانسانية على ضوء القوانين الاجتماعية الموضوعية القائمة فعلا . وعلاقة الانسان بالقانون ليست علاقة مجردة ، بل هي علاقة ديناميكية حية تتحدد بطبيعة هذا القانون ، ونوعية الوظيفة الاجتماعية لهذا الانسان . ولهذا فمن التعسف

ان نقول ان كل نشاط فردي خاص ليس الا تكيفا للظروف وليس الا مسلكا مفروضا من الخارج لا اختيار فيه . فكل نشاط فردي خاص نشاط اختيار ، ولكنه بغير شك كذلك نشاط مشروط ومحدود بالاوضاع الاجتماعية القائمة . ولهذا فان الاختيار والتحديد (او الاشتراط) معا يخلقان نوعية هذا النشاط الخاص . فعنصر الاختيار يحدد موقف الفرد من النظام القائم ، وعنصر الاشتراط او بتعبير اخر طبيعة النظام القائم تحد من النشاط الخاص او تطلقه وتنميه . ومن هنا ينبثق معنى الصراع الاجتماعي . ولهذا فلا سبيل الى القول بان النشاط الخاص مجرد تكيف وانه نشاط مفروض لا اختيار فيه. اذ ان هذا لن يفسر لنا ما تبينه الدكتور سعدون بنفسه من تناقض وصراع داخل الوضع الاجتماعي القائم ولن يفسر لنا كذلك واقع التطور الانساني .

غلى اننا من ناحية اخرى لا نستطيع ان نسلم بما يسميه الدكتور سعدون بالنشاط الخاص وحده . فكل نشاط خاص هو نشاط عام كذلك . ولا نستطيع أن ننظر هذه النظرة الجانبية الى النشاط الخاص ، دون ان نزيف حقيقته . فهناك بغير شك مسلك خاص في السياسة والتجارة والمعاملات والادب .. الخ .. ولكن كل مسلك خاص هو مسلك عام في الوقت نفسه . لانه مسلك اجتماعي . وخصوصيته لا تلغي عموميته ، وعموميته لا تطمس خصوصيته . وبدون هذا سنعجز عن تحديد نوعية هذا النشاط ووظيفته . بل سنجمع في دائرة واحدة ، الانتهازي والثوري والطفيلي والمنتج والرجعي والتقدمي . على ان الدكتور سعدون يسعى للخروج من هذا المأزق باضافة قوة تفسيرية للنشاط الفردي الخاص غير القوة البيولوجية والسيكلوجية المتمثلة في « المحافظ على الحياة » واعني بها القوة الاخلاقية . فهو يميز في النشاط الخاص بين النشاط المفيد والنشاط المحايد والنشاط الضار . على ان هذا لا يتيح لنا كذلك تحديد نوعية النشاط الخاص تحديدا اجتماعيا واضحا . بل انه يطمس معرفتنا بنوعيته الحقيقية . اذ ان الفائدة والضرر تقدران في نهاية الامر على ضوء الملابسات الاجتماعية .

فابو رجيلي مثلا رجل من رجال المال في مصر ، يستثمر امواله في مرفق حيوي نافع هو النقل . ومن وجهة النظر الاخلاقية البحتة التي يعرضها الدكتور سعدون نقول ان عمله هذا مفيد لنفسه ومفيد للاخرين. ولكننا نعرف ان ابورجيلة واحد من فئة الاحتكاريين في مصر ، وانه يحتكر النقل ويسعى لتوسيع احتكاره . وقد يقول هنا الدكتور سعدون ان استثمار امواله في النقل عمل غير مفيد وغير اخلاقي،لانه يقوم على الاحتكار، والاحتكار يعرقل نمو المجتمع . وعلى هذا فما هي القيمة لتفسير النشاط الخاص على اساس اخلاقي اذا كنا لا نستطيع تقدير النفع والضرر الا على اساس اجتماعي سليم ؟ ان الاساس الاخلاقي الخالص غير كاف في الحقيقة لتحديد نوعية النشاط الخاص ، وانما يكون هذا بتحديد الدلالة الاجتماعية العامة والوظيفة الاجتماعية العامة للنشاط الخاص على ضوء الملابسات الاجتماعية القائمة .

ولهذا لم ينجح الدكتور سعدون في تحديد نوعية النشاط الخاص .. لتجنبه البحث عن الاسباب الاجتماعية العامة لهذا النشاط واقتصاره على الاسباب البيولوجية والسكلوجية والاخلاقية .

ولم ينجح كذلك في تحديد نوعية ما يسميه بالنشاط التوجيهي العام لتذرعه بذات المنهج التجريدي ولاقتصاره على الاسباب الاخلاقية والدينية الكونية .

انه يلجأ في تفسيره للتطور الاجتماعي الى البحث عن « قسم من الناس » مطلق قسم من الناس دون تحديد ، يميزهم بما يشيع في وجدانهم من ارادة الحق المطلق والخير . ولا اعرف في الحقيقة كيف نفسر التطور الاجتماعي بارادة الخير ، ان لم نحدد معيارا موضوعيا للتمييز بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، وان لم نتبين قوانين الواقع الاجتماعي تبينا موضوعيا سليما .

ان ديجول يتحدث عن ارادة الخير والعدالة والحق المتمثلة في ذاته وهو يخدم الاستعمار والاحتكار الفرنسي وان دلاس يتذرع بذات هذه الكلمات المجردة نفسها ويعمل على توسيع رقعة الاستعمار الامريكي وزرع احلافه وقواعده العسكرية في كل مكان وشن حرب عالمية ثالثة ، حقا ، اننا نقول انهما كاذبان منافقان ، ولكن ما معيار كذبهما ونفاقهما ؟ اننا لا نملك جهازا لاثباته . ولسنا بحاجة الى هذا الجهاز .

اننا ندرك انهما عدوان للخير والعدالة والحرية والسلام . ندرك هذا ادراكا اجتماعيا موضوعيا ، لانما يمثلان« قسما من الناس » له نوعية طبقية خاصة . هي الاحتكار . انهم احتكاريون استعماريون تدفعهم ارادة «المحافظة على الحياة » (!) والرغبة في الحد الاقصى للكسب ، الى توجيه المجتمع البشري لخدمة مصالحهم واطماعهم . اننا اذن ندين دلاس وديجول لا كنشاط خاص فحسب ولا كنشاط عام عام توجيهي فحسب، وانما كنشاط خاص وعام معا له نوعية اجتماعية وبهذه النوعية الاجتماعية التي تتحدد بطبقتهما الاحتكارية اكتشف زيف معاني الخير والعدالة والحرية والسلام في كلامهما . وبهذه النوعية الاجتماعية اكتشف كذب دعوى الخير في مشروع النقطة الرابعة ، في كتاكيته واطعمته وخدماته الفنية ، واكتشف بطلان دعوى الخير والحق والحرية في مشروعات الاحلاف والقواعد العسكرية والامن المتبادل . انني لا انفي العمل من اجل الخير والحق ، ولكنني اقول اننا لكي ندرك قوانين التطور الحق ، ملزمون بان نتبين قوانين الحركة الموضوعية للمجتمع الخاص ، وللاوضاع العالمية ، لا ان نغلق عيوننا ووجداناتنا داخل قماقم من كلمات عامة مجردة تطمس امامنا سبل النضال .

على ان الدكتور سعدون في الوقت الذي يميز النشاط الخاص بانه تكيف مفروض ، ويميز النشاط التوجيهي العام بانه اختيار طوعي ، فانه سرعان ما يوحد بينهما ويتخذ لهما اساسا واحدا ، هو نزعة الحق . وهكذا يصبح التكيف للاوضاع القائمة سواء بسواء كالعمل على تغييرها . كلاهما سلوك انساني ـ خاص وعام ـ تدفعه نزعة الحق .

وكان من الطبيعي ان يفضي المنهج التجريدي الذي اختاره الدكتور سعدون الى هذه النتيجة التي تكاد تجعل كل مسلك انساني مسلكا نزاعا للحق في جوهره .

والمشكلة الحقيقية التي يتجنب الدكتور سعدون الاستبصار بها هي نوعية المسلك ، نوعية الانسان ، نوعيتهما الاجتماعية او بتعبير ادق نوعيتهما الطبقية في كل مرحلة تاريخية من حياة المجتمع .

ان المسلك الخاص سواء بسواء كالمسلك العام التوجيهي يعبر عن مراتب وطبقات ووظائف اجتماعية ، بعضها متخلف ، وبعضها متردد وبعضها ثوري ، بعضها منتج وبعضها طفيلي لا ينتج . ولسنا نقول شيئا على الاطلاق لو جمعناها جميعا في صنف واحد نزاع للخير والحق . او لو جعلنا قانون الحركة الاجتماعية هو ارادة الخير المتنبهة في قسم من هؤلاء الناس . ولكننا نقول شيئا ونستطيع ان نفعل بما نقول اشياء ثورية

حقا عندما نتبين هذه المراتب والطبقات والوظائف الاجتماعية وعندما ندرك قوانينها الموضوعية . وعندما نسيطر عليها بوعي وصلابة .

ان الدكتور سعدون يقول لنا ان هناك انسانا ما ، وظروفا ما ، ومجموعة ما من الناس ، تحركها ارادة ما للخير والحق ، لتحقيق تطور ما . ولا ادري اي تفسير هذا للتقدم البشري ، واي نظرية هذه للثورة الاجتماعية. ولا ادري كذلك كيف يستقيم تفسيرنا لحركة التاريخ لو استبدلنا كلمة الشر بكلمات الاقطاع والاحتكار والاستغلال والاستعمار ، واستبدلنا كلمة خير بكلمات التحرر والديمقراطية والرخاء والاشتراكية ، فقلنا ان الخير يهزم الشر ، وان التاريخ صراع متدرج بين ارادات الخير والشر وان الخير ينتصر دائما ثم سرعان ما يتكيف له الناس فيجمد ويتخلف ويصبح شرا ، ثم يبرز خير جديد ويعلو في نفوس بعض الناس ، وهكذا . اي تفسير نافع لناس هذا واي وعي موضوعي فيه يتعلق به المناضلون لتجديد حياتهم وتطويرها ، واي قانون يمكن ان يسيطروا به على واقعهم من وراء هذا التفسير .

حقا اننا متفقون على السعي الى خير البشرية وسعادتها ورخائها ، ولكن ما نوعية هذا الخير ، وما نوعية العقبات التي تحول دونه ، وما هي القوانين الموضوعية الموجهة لحركة التقدم البشري حقا ، لا هذه القوانين البيولوجية والسيكلوجية والاخلاقية التي تشتت الوعي وتطمس حركة الاشياء ، وتخفي حقائق الواقع وتجعل طريقنا الصاعد سحابا مزخرفا ، وطننا اجوف .

وفي تقديري ان الذي دفع الدكتور سعدون الى هذا التفسير الاخلاقي لحركة التقدم الاجتماعي هو فشله في التوفيق بين ايمانه بحتمية التطور، وايمانه بفاعلية الانسان . فبدلا من ان يكتشف العلاقة الموضوعية بينهما التجأ الى الاخلاق الذاتية والاخلاق الكونية او الدين بمعناه الشامل لتفسير هذه العلاقة . ولهذا جاء نقده للماركسية نقدا لا يقوم على اساس . فهو يتهم الماركسية بانها اغفلت الصراع الطبقي والقول بحتمية التاريخ عندما عزت التطور لقوة خارجة عن الناس هي حركة المادة وعندما قالت بانه ليس للانسان دور ارادي ذاتي في التطور بل ارادته وفكرته انعكاس لتطور الاوضاع المادية وعوامل الانتاج المحيطة به .

والواقع ان صراع الاضداد هو المبدأ الاساسي في الماركسية . وليس الصراع الطبقي الا التعبير عنه في المجتمع والتاريخ . والماركسية لا تعزو قوانين التطور الاجتماعي الى قوة خارج المجتمع البشري نفسه، فالانسان جزء من هذا المجتمع . والماركسية لا تفصله عن المجتمع ولا تلغي في الوقت نفسه ذاتيته وارادته الحرة الخلاقة . ولعل القضية الرئيسية التي تواجه الدكتور سعدون في الماركسية هي كيف نوفق بين قول الماركسية بان فكر الانسان وشعوره انعكاس للقوانين الموضوعية ، وبين حرية ارادته.

والواقع ان الماركسية لا تقول بان الفكر والشعور انعكاس آلي لقوانين الحركة في المجتمع والطبيعة . بل تكون الفكر والشعور نتيجة عملية معقدة تحققت على مدى تاريخي طويل وثمرة عمل اجتماعي مشترك . والانعكاس يتم بصورة معقدة كذلك ، ويتحقق خلال مشاركة الانسان في العملية الاجتماعية ويتفاوت بتفاوت ملابساته الاجتماعية وخبراته الحية ، ووضعه الطبقي . على ان وعي الانسان وشعوره ليس مجرد انعكاس لقوانين الحركة الموضوعية بل هو بدوره قوة فعالة خالقة . وارادة الانسان الحرة تنبثق من مدى وعيه الصحيح بحقيقة هذه القوانين ومدى قدرته على السيطرة عليها . فحرية الانسان انما تقوم على وعيه بما هو ضروري ، وعلى تحقق سيطرته على هذه الضرورة . وارادته بهذا المعنى ارادة ذاتية لانها ارادة متفاوتة من شخص الى شخص . وهي ارادة خلاقة لانها تتضمن القدرة على تغيير واقعه وتنمية حياته والتعجيل بتقدمه .

ننتقل بعد ذلك الى الفقرة الاخيرة من بحث الدكتور سعدون الذي يطبق فيه هذا المذهب على قضية التقدم العربي .

انه يتبين بحق ان الامة العربية ما تزال فاقدة لوحدتها السياسية ، وما تزال حريتها في الداخل والخارج غير تامة ، وان اقتصادها متخلف تسوده الفوضى في التنظيم والتوزيع . على ان المشكلة في رأيه لا تنحصر في الاطار الاجتماعي العام بل تجاوزته للفرد نفسه . فالفرد العربي بنشاطه الخاص قد تكيف مع الاطار العام المتخلف ونمت فيه عقلية وسلوك وعادات منسجمة مع فساد هذا النظام . ثم يشير الدكتور سعدون الى قيام الجمهورية العربية المتحدة باعتبارها نشاطا توجيهيا يهدف « لاعادة سلطة الانسان الانسان العربي على ظروفه ومحيطه » ولهذا يطالب بالا يقتصر النشاط التوجيهي للجمهورية العربية المتحدة على السيطرة على الظروف العامة وتغيير اسس المجتمع بل ينبغي ان يتعداه « لتغيير سلوك وتفكير الفرد نفسه » والدكتور سعدون لا يحصر القضية في فساد وتخلف الانظمة والقوانين والاوضاع العامة التي تشكل المجتمع ، ولا يرتضي الاكتفاء برد الفساد الى الاستعمار والاقطاع وانما القضية ان الفساد والتخلف قد وصل الى الفرد نفسه فاصبح سلوكه ودوافعه وتفكيره منسجما مع الواقع الفاسد . واصبح بهذا معرقلا للتقدم . ولهذا يدعو الى « عمل توجيهي عام يصدر من صميم ارادة الامة الحقيقية ليتغلب على الظروف الفاسدة» . «وان قوة هذه الارادة التي تتفتح كما يقول « في بعض الافراد» تحتاج لتجميع وتنظيم وبلورة مستمرة » اما مهمتها التي يحددها فهي ان «تعمل على هز اعماق الوجدان في الافراد الاخرين وتقاوم الفساد والتاخر حتى تستطيع تحريك العجلة واحداث تغيير اساسي في اطار المجتمع» فضلا عن « احداث تغيير في الافراد انفسهم ليتم الانسجام » . وهو لهذا يدعو الجمهورية العربية المتحدة بعد ان حققت تغيرا جذريا في الاطار العام في القطرين سوريا ومصر ان توسع جهودها في تحقيق تغير عميق في اوضاع الشعب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتبديل شخصية الفرد ذاتها لتجعل نشاطه الخاص منسجما مع الصالح العام » .

ولست اختلف مع الدكتور سعدون في ان حركة التحرر والتوحد العربي ما تزال تعاني الوانا من التخلف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي . ولست اختلف معه كذلك في ضرورة احداث تغيير جذري عميق في الافراد . غير ان الحقيقة ان قضية التغيير الجذري في الافراد غير منفصلة عن قضية حماية انتصاراتنا وتدعيم دولنا العربية المتحررة ومواصلة النضال لاستكمال تحرير بقية البلاد العربية وتصفية الاستعمار والقضاء على بقايا الاقطاع والاحتكار ، ورفع مستوى معيشة الشعب ، واشاعة الحريات الديموقراطية وتنمية الثقافة الوطنية ، وتطوير اقتصادنا القومي ... الى غير ذلك من المشروعات والاهداف العامة . فتغيير الفرد انما يتحقق بتغيير الانظمة المتخلفة والقضاء على الاوضاع الفاسدة . فقضية تغيير الفرد ليست مجرد قضية تعليمية خاصة ، وانما هي قضية اجتماعية عامة ، دون اغفال لاهمية التعليم . ولا شك ان الامر يحتاج الى خطة شاملة مدروسة تتفق مع احتياجاتنا الملحة وتنبع من ادراك موضوعي لواقعنا ولا تغفل الملابسات الدولية المحيطة بنا. فقضية المساهمة في حماية السلام العالمي، ومساندة الحركات التحررية في العالم اجمع جزء لا يتجزأ من قضيتنا الوطنية والقومية . وتعاوننا المثمر مع كافة الدول الوطنية والاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي قاعدة اساسية لتدعيم استقلالنا وتطويره .

على اننا لتحقيق هذه الواجبات ينبغي ان نتسلح بالوعي الصحيح لهذه الاهداف ، وبالوحدة بين كافة القوى الوطنية والتقدمية في بلادنا . ولهذا فلعل اضعف ما في هذه الفقرة الاخيرة من بحث الدكتور سعدون هي دعوته الى « عمل مصدره واساسه ارادة الخير » يقوم به « بعض الافراد ». وهذا التفكير هو بغير شك امتداد طبيعي لمقدمات بحثه السابقة ، امتداد لتجريده لنوعية الانسان ونوعية واقعه الاجتماعي.

ان ثورتنا العربية في الحقيقة لتتطلع لا الى « بعض الافراد » بل الى جبهة وطنية تضم كافة المنظمات والهيئات والعناصر الوطنية والتقدمية في مختلف البلاد العربية ، جبهة متراصة متحدة ، تلتقي حول اهداف واضحة محددة ، وتكافح معا من اجل تحقيقها .

هذا هو الطريق لتدعيم ثورتنا العربية وتنميتها وتعميق جذورها ومواصلة طريقها المظفر .

*

لم يبق بعد ذلك من مقالات العدد الا مقالة «الوجودية .. لماذا ؟» للاستاذ محيي الدين محمد ، الا انني سأرجيء الكتابة عنها الى العدد القادم حتى استكمل قراءة بقيتها المؤجلة الى هذا العدد .

وللاداب ـ كتابا وقراء خالص تقديري وعميق محبتي

محمود امين العالم

القصائد

بقلم رجاء النقاش

كانت ثورة العراق تجربة لفحت الوجدان العربي، وأثارت فيه كثيرا من المشاعر الكبيرة ، ولذلك فقد كان عدد الآداب الماضي مليئا بالقصائد التي تعبر عن هذه التجربة . والواقع ان ثورة العراق كانت ـ اكثر من اي ثورة اخرى « دراما » انسانية كبيرة. واذا نظرنا الى الجذور البعيدة لهذه الثورة عرفنا معنى هذه « الدراما » ومدلولها.. فالحق ان يوم ١٤ يوليو ، قد سبقته ايام اخرى مليئة بالتضحية الفذة والنضال المثابر . ولقد اتيح لي ، ولكثير من ابناء وطننا العربي فيما اعتقد ، ان يقرأوا مذكرات الشهيد العربي الكبير صلاح الدين الصباغ ، هذا الشهيد الذي ثار على نوري السعيد وعبد الاله سنة ١٩٤١ ، ثم فر من العراق وعندما فشلت الثورة بعد ان تآمر عليها الوصي ونوري السعيد مع القوات الانجليزية ... وظل صلاح الصباغ يجوب الافاق باحثا عن مأمن بعيد عن يد عبدالاله القاسية الظالمة ، فعاش في ايران فترة ، وعاش في تركيا وفي سوريا ، ثم اسلمته القوات الانجليزية اخر الامر للحكومة العراقية حيث امر عبد الاله بشنقه وتعليق جثته على باب وزارة الدفاع ، والابقاء على هذه الجثة معلقة لعدة ايام ، وفي ايام العذاب التي سبقت جريمة الشنق كتب صلاح الصباغ مذكراته ، فسجّل فيها مشاعره، وصور الغصة التي واجهته وهو يبحث عن مكان آمن ، بعيدا عن مطاردة الذئاب، كما سجل فيها حقائق كثيرة عن العراق ، عن اعداء العراق واصدقائه .. وقد كنت احس باستمرار وانا اقلب صفحات المذكرات الرائعة التي كتبها هذا البطل الشهيد ان بين سطورها امكانيات فنية كبيرة ، فمن الممكن ان يجد فيها الفنان العربي « مادة » غنية لرواية كبيرة ، تشبه تلك التي كتبها الفنان هوارد فاست عن « توم بين » الزعيم الامريكي الانساني. ان قصة هوارد فاست تعتمد على الوقائع المادية الموجودة في التاريخ ، ولكن الفنان استطاع ان يختار منها اجزاء ومواقف ويبني بها بناء فنيا يدل على « توم بين » في التاريخ ، ويدل عليه في حساب البطولة الانسانية ، التي تفيض بالعزيمة ، وتفيض بالحب ، وتفيض بالفهم للقضية التي يدافع عنها ذلك الانسان البطل ، وهي في اخر الامر تفيض بصور من التضحية التي يصعب على العقل ان يتصورها عندما توضع امامه في صورة عامة مجردة ، اما اذا وضعت امامه بتفاصيلها وبواعثها فسوف يجد فيها ما يقنعه ويهز وجدانه هزا ... سوف يجد فيها ان دوافع الثورة والتضحية تنبع من عواطف انسانية بسيطة نبيلة ، وليس البطل بالنسبة لهذه العواطف شاذا ولا خارقا للعادة ، ولكنه اكثر انتسابا للانسانية وغنى بها من سواه .. سوف يجد كل منا في هذه البطولة ما يجعل بامكاننا ان نصبح ابطالا ما دامت البطولة هي الصدق والمثابرة على الدفاع عنه .

يستطيع الفنان العربي ان يجد في مذكرات الصباغ مادة لرواية فنية قيمة ... ويستطيع ان يجد فيها مادة للشعر ... فلو تأمل الشاعر العربي المطالب التي ينادي بها الصباغ على صفحات مذكراته ، او الليالي التي كان يعاني فيها آلام الغربة والجوع والتشرد ، او فراره من بلد الى اخرى او حنينه الى اولاده وتراب ارضه ... لو تأمل الشاعر العربي هذه المواقف كلها لاستطاع ان يحيلها الى غناء عذب رائع ، فيه تعبير عن ثورة العراق ، وفيه تصوير صادق لهذه الثورة ... فالثورة كما قلت كانت دراما كبيرة ، مشحونة بالاحداث والمواقف ، وما اكثر قابلية هذه الاحداث وتلك المواقف لان تصبح شعرا على يد فنان يحاول ان يتأمل الثورة تاملا صادقا عميقا لا سرعة فيه ... هناك الى جانب مذكرات الصباغ المليئة بامكانيات الشعر ، مواقف الشهداء في « النجف » ، هؤلاء المتدينون الذين خرجوا باسم الدين ذات يوم يحتجون على نوري السعيد، فقابلهم بنيرانه الملتهبة ، واخذ يحصد جموعهم بطريقة قاسية مريعة ... كيف التقى رجل الدين هذا بمن يدافعون عن مبادىء عصرية مثل الاشتراكية او القومية العربية ؟.. كيف التقت هذه الروافد المتعددة التي تختلف في بعض الاحيان اختلافا جوهريا عن بعضها .... كيف التقت ذات يوم في سلوك واحد ، وشعور واحد ؟

عديد من الاحداث والمواقف في تاريخ العراق يمكن ان يكون مادة للفن ، بمناسبة هذا الموقف الحاسم المنتصر ... موقف ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ .

بمثل هذه المشاعر والخواطر بدأت اقرأ القصائد المنشورة في العدد الماضي من الاداب ، وأشد ما اخشاه باستمرار عندما يعالج الشعر قضية كبرى من قضايانا ان اجد نفسي امام ذلك اللون من الفن الذي اصبحت معظم الاذواق ترفضه وتنكره ، وهو ما تسميه بـ « فن المناسبات » او « شعر المناسبات » ... ذلك اللون من الفن الذي يفقد اروع ما في الفن واصدق ما فيه ، أقصد : الصدور عن تجربة حقيقية ... ليس هناك « واجب » على الفنان ان يكتب ما لم يشعر به حتى ولو كان ما يكتبه عن ثورة كبيرة مثل ثورة العراق ، ومن الخطأ ان ينتظر اي فنان من الناس ان يتجاوبوا مع فنه لمجرد عطفهم على الموضوع الذي يكتب عنه

ذلك الفنان ... وكذلك فان في الامكان ان يكون الفنان قد انفعل بحادث مثل ثورة العراق انفعالا كبيرا ولكنه غير داخل في نطاق الفن ... ربما يكون قد انفعل به كمواطن كان يتمنى لوطنه ان يتخلص من الظلم ، ويتخلص من الطغيان والوان الاستبداد والعدوان ... ربما يكون قد انفعل بهذه الصورة ولم ينفعل بالثورة انفعالا صالحا لان يكون مادة فنية في الشعر او في القصة ... واعتقد انه ما من احد يمكن ان يلوم الفنان على انه لم يكتب شعرا او قصة في ثورة من الثورات ، وخصوصا في المرحلة الاولى لقيام هذه الثورات .. ما من احد يمكن ان يلوم فنانا على هذا الموقف ، الا اذا كان شخصا متعسفا يتطلب الافتعال ومجاراة الاحداث باي صورة من الصور ، اما الفنان الحقيقي فلا يضيره ان يتريث في الكتابة عن ثورة العراق ـ مثلا ـ كتابة فنية ، ولا يضيره ان يشارك مواطنيه في احتفالاتهم ومناصرتهم للثورة دون ان يكون هذا الاشتراك عن طريق فني بالذات ، كل ذلك اذا لم يجد الفنان مادة كافية وصالحة لتجعل الثورة موضوعا فنيا صالحا للكتابة ، ولكن الذي يعيب الفنان حقا ، هو ان يكتب فنا سطحيا عاجلا لا يصدر عن تجربة نفسية حقيقية تجعل من فنه عملا له قيمته المستقلة التي لا تستمد روعتها من قيمة الموضوع وحسب .

ان « فن المناسبات » فن رديء ، يذكرنا بخطباء المساجد ، ومدرسي الاخلاق ، هؤلاء الذين يؤدون واجبات متكررة لا تنبع من قلوبهم ، ولا من تجاربهم ... انهم يقولون ما يقولونه لان من واجبهم ان يفعلوا ذلك ، وهم لا يفكرون في ابتكار شيء ، او تجديد اسلوب من اساليبهم ، او تغيير موضوع يعالجونه ... انهم سجناء قوالب جامدة ، واصطلاحات مكرورة خالية من الحيوية ... لا طعم لها .

والمؤسف حقا انني وجدت نسبة غير قليلة من هذا اللون الفني في شعر العدد الماضي من الاداب ، وقد انزلق في هذا المجال شعراء كبار نكن لهم كل تقدير وحب ، ولنبدأ جولتنا في الميدان بقصيدة الشاعرة العربية الموهوبة نازك الملائكة ... قرات هذه القصيدة اكثر من مرة ، واستمعت الى آراء الكثيرين فيها ، وانصت طويلا لرأي الدكتور سهيل ادريس وهو يقرأها علينا في ليلة من ليالي القاهرة بصوت ملؤه الاعجاب بالقصيدة والحماس ، واستمعت في هذه الليلة نفسها الى راي محمود العالم في هذه القصيدة ، وهو واحد من النقاد الذين احترمهم كثيرا ، وانظر الى آرائه نظرة تقدير وحب مهما كان بيني وبين تلك الاراء من خلاف ... واتفق سهيل ومحمود على الاعجاب بالقصيدة ... اما انا فقد حاولت كثيرا ان اعثر في هذه القصيدة على نازك ، فلم اجدها ، وحاولت كثيرا ان اجد كلماتها التي تدخل الى قلبي بسهولة ورفق فلم اجد هذه الكلمات ، وانما وجدت عديدا من الصور التجريدية العامة التي ترسم تخطيطا نفسيا ضبابيا غامضا مبهما لثورة العراق ، ووجدت هذه الصور خالية من الارتباط والتماسك ، فهي صور جزئية متجاورة متوازنة قد يوحي كل منها على انفراد بايحاءات وجدانية جميلة ، ولكنها في تتابعها داخل بناء القصيدة لا تعطي شيئا .. انها اشبه « بتصفيق » رتيب يتكرر معبرا عن الاعجاب بثورة العراق . ولنقف في هذه القصيدة عند ثلاث ظواهر عن الاعجاب بثورة العراق. ولنقف في هذه القصيدة القصيدة تقول الشاعرة الكبيرة :

فرح الايتام بضمة حب ابويه

فرحة عطشان ذاق الماء

فرحة تموز بلمس نسائم ثلجيه

فرح الظلمات بنبع ضياء

فرحتنا بالجمهوريه

في هذه الصور «صنعة محكمة » لفنانة كبيرة قادرة ... ولكنها لا تزيد عن « صنعة محكمة » ... في البيت الاول صورة معنوية كان من الممكن ان تفصلها الشاعرة وتقف عندها بل وتكتفي بها لكي تصل الى نفس القارىء ... تلك الصورة هي « ضمة ابوية يتلقاها اليتيم » ... هنا اشارة الى ميدان من ميادين الشعور فيه رفق ، فيه دموع فرحانة مكتومة ، فيه تفاؤل وعزيمة على النمو والازدهار ... ولكننا نفاجأ بصورة تتبعها لا علاقة لها بالصورة الاولى على الاطلاق ... نفاجأ بصورة « عطشان ذاق ماء » ... صورة من « المشاعر المادية » اذا صح التعبير ..

وهي مشاعر تختلف عن المشاعر التي ثارت في نفسنا امام الصورة الاولى ، بل وتتناقض معها تماما ... ان الصورة الثانية تبدد بعنف الاحاسيس والانفعالات التي تجمعت لدينا من الصورة الاولى ... وصورة ثالثة ... « فرحة تموز بلمس نسائم ثلجيه » ... لفتة الى الطبيعة منفصلة عن الصورتين السابقتين ، والارتباط بين الصور الثلاث فكرة ضئيل ضئيل ... صحيح ان الفكرة التي تجمع بين الصور الثلاث فكرة واحدة هي « تحقيق الامل » ، و « تحقيق الحاجة » .... ولكن الشعر ليس فكرة عقلية تجمع بين الصور ، وانما هو تجربة نفسية تتحكم في الخطوط المختلفة للصورة الشعرية ... ماذا لو اكتفت الشاعرة الكبيرة بصورة واحدة من بين هذه الصور المتتابعة الرتيبة وتأملتها تاملا شعريا لتصل منه الى ما تريد ان تقول ؟ .... ماذا لو اكتفت بالصورة الاولى .. .« فرح الايتام بضمة حب ابويه » وتركت هذه الصورة تشع ظلالها وتفاصيلها على المقطع الاول من القصيدة بل على القصيدة كلها ، بدلا من ان تضطرب بين صور معنوية او صور مادية اضطرابا لا يؤدي بنا في النهاية الى موقف نفسي واحد ... ان وحدة الرمز او وحدة الصورة الشعرية شيء هام في العمل الفني الذي يصدر عن تجربة منسجمة متكاملة ، واني اذكر في هذا المجال قصيدة لنازك تحققت فيها وحدة الرمز هي قصيدة « مقدم الحزن » .. حيث كانت الصورة في هذه القصيدة هي صورة « الفلام الحساس » .. ومن قلب هذه الصورة انطلقت الفنانة الكبيرة لتدفع الى نفوسنا بعديد من المشاعر المتكاملة الناضجة ، فكانت قصيدتها من اجمل مخلوقات الوجدان العربي في تاريخنا الفني كله ... انني لا اقول ان وحدة الرمز في قصيدة « مقدم الحزن » هي سبب روعة القصيدة ، وانما صدق التجربة النفسية هو السبب ، ووحدة الرمز نتيجة من نتائج صدق التجربة وشمولها ... وهنا احب ان اقول شيئا هو : انني لا اتهم نازك بان تجربتها في قصيدة العدد الماضي غير صادقة .. فنازك عندي فوق الاتهام .. انها ومضة صدق ، وموهبة ، جبينها نبيل مقدام في عالم النفس والشعور ... ان الذي اريد ان اقوله هو على التحديد : ان نازك عاشت التجربة بعقلها ولم تعشها بقلبها .. وامسكت بقلمها الصانع الماهر ، ولم تمسك بقلمها الموهوب المفطور ..

اما الملاحظة الثانية على القصيدة فهي « نثرية » الصياغة في بعض مقاطع القصيدة ، مثل قول الشاعرة الكبيرة :

جمهوريتنا دفقة خير مسكوبه

تقطر ايمانا وعروبه ...

وفي مقطع اخر تقول :

السوق صحا يا ورد حذار
من نقمته الصهيونيه
ومخالبه الامريكيه ..

والملاحظة الثالثة هي : شيوع الروح الانثوية في جو القصيدة ... ففيها حنان ومحبة ومشاعر قريبة جدا من مشاعر الامومة ، ولعل هـذه الظاهرة تعطي للقصيدة لونا من الدفء والحيوية ، ولكنها من جانب اخر تفقد اصالة الصلة بموضوعها ، وذلك للنقص الملموس في التجربة النفسية ، فلو كانت التجربة النفسية واحدة تشمل القصيدة كلها ، وكان منطق هذه التجربة يحتاج الى تلك الروح الانثوية ، لما بدا هناك انفصال بين روح الانوثة وبين جو القصيدة العام ، ولكن الذي يحس به القاريء هو ان الشاعرة الكبيرة قد اتخذت من موضوع القصيدة « فرصة » للتعبير عن مشاعر ذاتية خاصة بها .. وهذا الموقف هو ما يسمى في اصطلاح « علم النفس » بعملية « الاسقاط » .. اذ يرى الانسان في الموضوع الذي امامه ما ليس فيه .. انه يرى على التحديد ما في نفسه منعكسا على الاشياء حتى ولو كانت الاشياء لا تحتمل هذا الانعكاس .

بقي ان اقول ان عدم اعجابي بهذه القصيدة لا ينفي ما فيها من تميز ، ان اصابع نازك مطبوعة على هذه القصيدة رغم كل شيء ، فصورها الشعرية الجزئية ، وكلماتها العذبة ، وسهوله المجرى الشعري في ابياتها ... كل هذه الملامح موجودة في قصيدة نازك رغم عيوبها التي اشرنا اليها، وهي في رأينا عيوب رئيسية .

نلتقي بعد ذلك بشاعر كبير اخر هو : نزار قباني في قصيدته « تحية حب لبغداد » ... وقد شعرت امام هذه القصيدة بشيئين : الاول هو الاحساس بان القصيدة ليست في مستوى القصائد الممتازة لنزار ، والثاني هو ان القصيدة ممتعة رغم ذلك ، فهي تتميز بحرارة الانفعال الذي ينعكس على انغامها القوية العنيفة ، والذي يلفح وجدان القاريء منذ البيت الاول ، وهي قصيدة بسيطة سهلة ، هي دفقة انفعال اثارته نفضة العراق كرد فعل عاجل وسريع ، وقد خلت هذه القصيدة من وثبة الابتكار الفني التي وصل اليها نزار في قصائده الاجتماعية الاخرى مثل قصيدة « خبز وحشيش وقمر » ، والحق ان الشاعر ليس مطلوبا منه باستمرار ان يتجول في الافاق العليا للشعر ، هناك آفاق قريبة ولكنها حلوة وعذبة .. ان النسور التي تحلق على ارتفاع كبير ، لا يمكن ان ينفى روعة تحليقها ما في تحليق العصافير من جمال وشفافية ... وهذه القصيدة من عصافير نزار ، وليست من نسوره ، وهي عصفورة زكية خضراء حنجرتها وتر موسيقى رقيق .

هزني في هذه القصيدة :

كل جرح وله ميعاده
يعطش الجرح ولكن ليس يفطم

ولم يعجبني فيها تلك الفلسفة اللفظية التي تظهر فيهذه الابيات :

يصبح الشعب الها
حين يظلم
ربنا مات
قتلنا ربنا
ورميناه الى قعر جهنم

فاستخدام كلمتي «الاله» و « الرب » بمدلولين مختلفين في بيتين متتاليين يحدث نوعا من « الربكة النفسية » اذا صح التعبير .

نلتقي بعد ذلك باغنية للاستاذ محمود حسن اسماعيل لا احب ان اقف امامها طويلا .. فربما لم يكن من وظيفة هذه الاغنية ان تنشر في مجلة ادبية ، وقد يكون من التعسف ايضا ان نناقشها على انها عمل ادبي مكتمل العناصر والخصائص ، فهي في حقيقتها مجموعة من الخواطر المنظومة ، التي كتبت بصورة عاجلة لتدخل ضمن عمل فني اخر نطلق عليه في النهاية اسم «اغنية» ، قد ادت هذه الاغنية ام كلثوم ، وكان هدف الاغنية هو تحية العراق في اللحظات الاولى من ثورته الكبيرة ... وقد ادت الاغنية دورها في هذه الحدود ، انها عمل فني من اعمال المناسبات لابقاء له بعد ان تنتهي هذه المناسبات او بعد ان يكون لها دور أبعد واعمق مدى .

بعد ذلك نلتقي بشاعر شاب هو « فاروق شوشة » في قصيدة تحت عنوان « شهيد الكلمة » ... وصاحب هذه القصيدة شاعر موهوب ، ولكنه في نفس الوقت شاعر كسول ، ان في امكانه انيجيد فنه ويصل فيه الى مستويات طيبة تفوق المستوى الذي وصل اليه في قصيدة « شهيد الكلمة » والتي تعتبر في رأيي من اجمل ما قيل في ثورة لبنان . انها رقيقة ، سليمة الصياغة ، عميقة في افاقها الشعورية التي تطرقها وتتحرك فيها ، وهذه الامكانيات نفسها متوفرة غالبا في معظم ما يكتبه هذا الشاعر الشاب، ولكنه يصطدم عادةبعيب ناتج فيما ارى عن « الكسل » وعن انعدام المحاولة للابتكار والتميز، فما من قصيدة قرأتها له الا ولمحت وراءها شاعرا اخر ، بل غالبا ما المح شاعرا معينا هو صلاح عبد الصبور ، وهذه التأثرات الخارجية لا تتسرب الى فاروق نتيجة العجز والضعف ، ولكن نتيجة السرعة وقلة الممارسة الشعرية ، ولو تغلب هذا الشاعر على عيبه ذاك ، وحاول باستمرار ان يكون مبتكرا متميزا دون ان يسمح للتأثرات الخارجية ان تفرض نفسها عليه لاستطاع ان يقف في ميدان الشعر كوجه له سماته الخاصة الواضحة، وفي قصيدة العدد الماضي اجمل ما في شعر هذا الشاعر الشاب ، وفيها ذلك العيب الذي يقع فيه دائما .. فهو عندما يقول :

كان انسانا
ودودا كالنسيم

يذكرني على الفور ببعض مقاطع قصيدة « الناس في بلادي » لصلاح عبد الصبور

عندما اقرأ قوله :

ولكي تصمد في الريح الحروف العاريه
ولكي تبقى جسورا في فراغ الهاويه
ولكي تحفز في الدرب خطوطا بانيه ..

عندما اقرأ هذه الابيات تثب الى ذهني على الفور مقاطع من قصيدة « لحن » لصلاح عبد الصبور ايضا . ومع هذا كله ، فقصيدة « شهيده الكلمة » من الاعمال الفنية الممتعة التي تشهد لصاحبها بالقدرة والموهبة .. كل ما نرجوه لهذا الشاعر ان يصهر مواهبه في بوتقة جديدة مستقلة ، فالتقليد مهما كان مستواه يسيء الى الشاعر ويضر بشخصيته .. وما اغنى شاعرا مثل فاروق شوشة عن ذلك الكسل الذي يؤدي الى التقليد !

نلتقي بعد ذلك بقصيدة « بغداد .. والموت » للشاعر الشاب احمد عبد المعطي حجازي، وانا اقول منذ البدء ، ودون تردد : ان هذه القصيدة

رائعة ناضجة الى ابعد حد ... منذ الابيات الاولى يشعر القاريء انها قصيدة تنبع من القرار البعيد ، انها ليست بنت الاعماق القريبة ، وليست طافية على سطح الشعور ... ان الشاعر قد فكر فيها كثيرا ، عاش من اجلها : يقلب مشاعره وذكرياته وثقافته على شتى الوجوه ، انه ، دون شك ، لم يبدأ بكتابتها بعد فترة قصيرة من التفكير فيها ، بل كتبها بعد فترة طويلة من هذا التفكير ، واستطاع ان يشير بها الى امكانيات كبيرة في الشعر الجديد ، والى افاق جديدة في هذا الشعر نفسه .

والخيط الذي يربط هذه القصيدة ، او التجربة النفسية هو «الصراع بين الموت والحياة » على مسرح بغداد ، هل الموت في بغداد هو ما نعرفه ونسميه بهذه التسمية ؟.. هل الحياة هي الحياة بمعناها الخارجي الشائع ؟ .. كلا ، ان الفكرة الرائعة التي انبثقت في وجدان شاعرنا تجيب اجابات مختلفة ، فهناك ناس كانوا ميتين وهم احياء ، وهناك « قتلى ساهرون » تحت الرماد .. هنا مدلول جديد للموت ، وهنا مدلول جديد للحياة .. هنا ابتكار اصيل ، هنا شعور غامر بالمعنى العميق البعيد للاشياء ، فالحياة والموت « وظيفتان » لا اشياء شكلية ، الذي يعيش وظيفته ان يزرع الموت والخراب في النفوس والقلوب .. في بيوت الناس وشوارع المدينة وعيون الاباء والامهات . .هذا الانسان « ميت » وليس حيا بحال من الاحوال .. اما الانسان الذي يموت ، ووظيفته في موته ان ينبه الناس الى شيء حي ، كالعدالة ، كالحرية ، كحق الناس في السعادة والحب والخبز ، هذا الانسان لا يمكن ان يموت .. انه «ساهر» تحت الدمار ينتظر ان يشرق الصباح عليه ، ويطوي دروب الليل لكي يتفجر هذا الضوء المأمول .

هذه هي الفكرة الرئيسية في القصيدة ، ولكنها ليست فكرة تجريدية عامة ، فلو وقف الشاعر عند تحليل الموت والحياة على الصورة السابقة لكان ابتكاره محدودا بالمجال الفكري ، ولكن ابتكاره فني ، يكسوه من الفن لحم ودم ، فقد لجأ الشاعر الى مستويين من مستويات الفن الشعري مستوى الغناء المباشر ، ومستوى التصوير .. ففي مطلع القصيدة نراه يغني على وتر هادىء شجي : معنى الموت ، وقد اختار الشكل التقليدي لبداية قصيدته ، وكان ملهما وموهوبا في ذلك الاختيار ، لقد اكد لنا اختياره ان الغناء يتطلب « نفسا طويلا » في بعض الاحايين ، وان هذا النفس الطويل يتوفر بصورة رائعةفي الشكل التقليدي اذا احكمنا السيطرة عليه واخضعناه لما نريده ، ولم يخضعنا هو لمطالبه .. بدأ الشاعر قصيدته بالغناء العام حول معنى الموت .. حول ذلك الحي الذي جعل الموت وظيفة له ، وعاش بين قصور هائلة ينتظر شاعرا يمدحه ، ويقول له : انت الفتى ولكنه لا يجد .. واذا وجد شيئا فان هذا الشيء هو القتيل الذي لم يمت والذي يسأل بغداد : متى الثأر متى ؟.

وبعد هذا اللحنالغنائي الممتد امتدادا فيه رهبة ، وطموح ، وقوة ... يعود الشاعر الى مستوى اخر ، هو مستوى « التصوير الشعري » ... في المقطع الاول من قصيدته كان هو الذي يتكلم ، في المقطع الثاني تتكلم اجواء بغداد ، وصورها الحزينة التي تكتم الامها ، وتتسرب بثورتها عبر الظلام ، وفي همس من اجل ان تتغلب على ما بداخلها من الركود والجمود والصمت وكآبة الجبين ، وفي هذه الصورة الكئيبة الرائعة ينطلق خيط انساني تمثله هذه الصورة :

وامرأة تغلق في وجه المساء بابها
تبكي على اخشابه .. احبابها

او هذه الصورة :

وسبعة من الرجال
جباههم مجرى عرق
وجوههم معتمات لا تبوح
عيونهم لا تستريح
تنفذ في السرداب ، تعلو .. حيث بغداد تنوح

او هذه الصورة الثالثة:

واذ في نهاية السرداب باب
وشدت العيون نحوه ، كأنها حراب
صدى خطى .. افسد وقعها الكلال
القلب دق
النسر حط في دمشق
عدنان خير لا ينال

وينتهي المستوى التصويري الذي نقل الينا كآبة بغداد واحزانها ، وما يدور في داخلها من حركة انسانية خافتة تحاول ان تصنع شيئا ، ان تحطم الكآبة ،ان تذيب الاحزان .. ينتهي هذا المستوى التصويري ليبدأ « الغناء » من جديد .. ويبدأ في نفس القالب التقليدي ، الذي يمتد مع مشاعر الفنان واحاسيسه .. انه هنا هو الذي يتكلم ، هو الذي يحكى رؤاه ، وتأملاته ، والصور التي احتشدت في قلبه عن « الدراما » الانسانية التي مثلها الناس في العراق خير تمثيل واروعه .

ثم يعود بعد هذا الغناء الى التصوير من جديد . انه يحكى في تركيز رمزي رائع حكاية « صلاح الصباغ » ، وفي هذا المستوى التصويري ، تولد حركة اشبه بالوثبة الاخيرة قبل النصر .. وما اروع كفاح الوثبة الاخيرة وما اصعب هذا الكفاح في نفس الوقت :

كأنه يخطب في جنوده يوم الصراع
كأنه ما زال هاربا ، يعاكس الرياح

... وما اروع هذه الصورة ، وما اكثر غناها بالحركة والدلالة على ما كان يعانيه « صلاح » وما كان يعانيه كثير من المكافحين الابطال ... « ما زال هاربا، يعاكس الرياح »... هذا شعر ينبع من تمثل حقيقي اصيل لروعة التجربة الانسانية التي عاشها المناضل العربي ، طريدا يئن ويتأمل ويحلم... و« يعاكس الرياح » .

قريبا :

مدينة بلا قلب ..

شعر

للشاعر العربي المجدد الاستاذ

احمد عبد المعطي حجازي

دار الآداب

ولنقف امام صورة اخرى للبطل :

اطفال بغداد بجانب الجدار يهمسون

رد علينا، ان صمتك الطويل يقطع الصبر الجميل

رد علينا ما الذي عرفت في عالم الرحيل

ـ يا قائد الثوار! يا حيران بالحلم النبيل !

انا اريد على التحديد ان أقف امام البيت الاخير ... « يا قائد الثوار! يا حيران بالحلم النبيل » .. انه صورة اخرى من صور التعمق في التجربة والاحساس بها ... « حيران بالحلم النبيل » هذا هو صلاح على حقيقته ، وهذا هو كل مناضل في ازمة عذابه ، وازمة المه ، وازمة انفراده ، بعد ان انتصر عليه اعداؤه ولو نصرا مؤقتا محدودا !.

ان هذه القصيدة تتفوق تفوقا كبيرا بين القصائد التي قيلت عن ثورة العراق ، وهي تثبت وجودها في الشعر الجديد كله كعمل فني من اروع ما خطه الشاعر الجديد في ادبنا العربي.

دعامة النجاح في هذه القصيدة ثلاثة عناصر : الاول هو ان للقصيدة « بناء فنيا » ، انها لا تقوم على اساس من تداعي المشاعر ، ولا على اساس من تداعي النغم، ولا على اساس من تداعي الصور .. ولكنها تقوم على بناء وتصميم وتخطيط ، هنا غناء ، وهناك تصوير ، هنا حوار ، وهناك فكرة شعرية ... وكل هذه العناصر توضع في موضعها من القصيدة وتحتل مكانها الصحيح دون زيادة ولا نقص . والعنصر الثاني هو المزاوجة بين الغناء والتصوير، بين صوت الشاعر ، وصوت الصورة الانسانية ... وروعة هذه المزاوجة تزداد اصالة لاستخدام القالب الفني القديم والقالب الفني الجديد معا ، وبتعبير اخر استخدام القالب القديم استخداما جديدا، وادخاله ضمن عناصر البناء الفني للقصيدة الجديدة ، وهذا الانسجام هو ، فيما اعلم ، اول مرة يستخدم فيها الشكل القديم على هذه الصورة وهو استخدام سليم يفتح بابا صالحا للشعر الجديد .

اما العنصر الثالث الذي اعطى لهذه القصيدة قيمة فهو : عمق ما فيها من افكار ، فالشاعر لم يلجأ الى المعاني العامة ، بل فكر وتأمل وحاول ان يصل الى جديد في افكاره وتأملاته ، وقد وصل بالفعل ، كما انه استخدم ثقافته ومعلوماته استخداما فنيا ، فاستفاد من تجربة « صلاح الصباغ » ، واستفاد من تجربة الشباب الذين كانوا يتركون بغداد في عهدها المظلم. هذا هو الذي اعطى لهذه القصيدة كثافة ، ووزنا ، وقيمة كبيرة .

على ان من الحق ان اقول ان خاتمة القصيدة اشعرتني انها ناقصة الى حد ما ، ربما كانت في حاجة الى مقطع غنائي ، ربما كانت في حاجة الى خيط يصل بينها وبين بقية الاجزاء .. ولكن على اي حل فان هذا الشعور الذي شعرت به لم يكن حادا ، ولم يؤد الى الاحساس بالفتور او الاضطراب في القصيدة .

احب ان اقف هنا في كلامي عن شعر العدد الماضي من الاداب . لقد راعيت ان اتناول القصائد التي قيلت في ثورة العراق ، ولتي كانت تثير من المشاكل ما هو جدير بالمناقشة . والواقع ان القصائد السابقة هي وحدها الجديرة بذلك ، اما بقية القصائد التي نشرتها الاداب عن ثورة العراق، فقد شعرت بضآلتها الفنية بما في ذلك قصيدة شاعر كبير أحمل له كل تقدير وحب هو عبدالوهاب البياتي.. ان القصائد الباقية عن ثورة العراق كتبها اصحابها بمداد شائع معروف ، يتكرر في كل حادث وطني، او حادث انساني كبير .. ومهما كان في هذا الشعر من جمال الصياغة او جمال الصور الجزئية ، فهو « شعر مناسبات » بما في هذه الكلمة من معان لا اوافق عليها ، ولا احبها .

ولا بد ان اشير بعد ذلك الى قصيدة هامة نشرت في العدد الماضي وليس لها علاقة بثورة العراق تلك هي قصيدة « التراجيديا الانسانية » لنجيب سرور . وقد كان بودي ان اناقشها لما فيها من جوانب متعددة تثير النقاش ، وتدعو الى التأمل ، لولا انني قررت منذ البدء ان اقتصر على مناقشة القصائد الخاصة بثورة العراق ، والاكتفاء بذلك ، ولكن هذا لا يمنعني من ان اسجل شعوري ازاء قصيدة نجيب ، فهي قصيدة ممتعة، فيها جهد ، ومحاولة جادة لكتابة شيء جديد .. وفيها اشياء لا اتفق مع صاحبها عليها ... وان كانت المناقشة تحتاج الى فرصة اخرى واسعة، تحية لصاحب القصيدة ، واملا في لقاء جديد .

القاهرة — رجاء النقاش